الناس بامتداح القـــــــديم وبذم الحديث غير الذميم
ليس إلا لأنهم حسدوا السمىّ فرقوا على العظام الرميم

ولله در القائل أن المتقدمين بنوا فأوثقوا، وأن المتأخرين زينوا ونمقوا، ورأيت فى رسالة (وإن لكل زمان . ما يليق به من البيان) وفى أخرى (الناس بأزمانهم . أشبه منهم بآبائهم، ولم تزل البلاغة فى كل عصر بالمشاق والمغارب تطلع ما يزين سماؤها من شمس وبدر وكواكب. والمنصف من أطال عنان الاختيار دون اقتصار. ولم يخص بالفضيلة عصراً من الأعصار ولا مصراً من الأمصار. وإنى لما تغلغلت فى الرحلة ما بين مشرق ومغرب وملأت سمعى من كل معجب بنفسه ومعجب. ولقيت من الخائضين فى النظم والنثر، ما أشار إليه القائل بقوله الذى هو على الفرض أول من النسيم على الزهر :

الناس كالأرض ومنها هـــم من خشن فيها ومن لين
مر وتشكى الرجل منه الأذى واثمد يجعل فى الأعين

قمت محتسباً للبلاغيين. وتبيين طبق الصناعتين. فاشتغلت بالكتاب الموسوم بجامع المرقصات والمطربات. وما يعنون به عن سائر الطبقات. وهو محتو على ما يتضمنه من الغرض المذكور فى كتاب المشرق، فى حلى أهل المشرق. وكتاب المغرب فى حلى أهل المغرب ولما أشاع ذكر اشتغالى بالجامع المذكور تطلعت إليه همم أحالت أمانيها فى الغرض من هذا الشأن عليه، وتكرر الطلب والس أن ينتهى إلى غاية الكمال، فجعلت هذا الكتاب كالمقدمة بين يديه، وصنفته ليكون كالمدخل إليه (وسميته عنوان المرقصات والمطربات) وضمنته من النثر زهرات مقتطفة ويسهل حفظها ومن النظم بدائع أبيات لا يشق عليالقلب والطرف ذكرها ص ٤ ولحظها مما يحاكى شعشة الشمس على صفحات الأنهار. ورقرقة الطل فى لحظات الإزهار. ليرف على ما يثته ريحان القلوب، ويعطيه السمع لحظ المحب إلى المحبوب:

من كل معنى ولفظ كخمرة فى زجاجة
يســـــرى النسيم إليه يبغى لديه علاجه

ولم أتجاوز فى النظم ألف بيت، مما لا تحدى عليه بلولا وليت

ورتبته على الإعصار ترتيب الفرائد فى العقود، ومزجت المرقصات والمطبرات فيه مزج الحمرة بالبياض فى الخدود، وفصلت ما بين فضلا الشرق وفضلا الغرب. كما فعل بين الجمعين حكم الطعن والضرب. ولم أتعرض